

الشخصية والشخصية!!

<http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa107-090216.pdf>

د. صادق السامرائي
أمريكا - العراق
sadiqalsamarrai@gmail.com



الشخصية نمطية سلوكية مُتعلمة وراثيا أو محيطيا , ولكل مخلوق آليات تفاعلية متحفزة أكثر من غيرها , إنطلاقا من مكونات الذات ومؤثرات المحيط , وقد تكون الآليات المتحفزة متقاربة الإستجابات عند الذين يتعرضون أو يعيشون ذات الظروف البيئية والموضوعية. أي قد يشترك مجموعة من البشر بنمطيات سلوكية متقاربة لكنها لا تتطابق. ويخضع المنتج السلوكي لكيفيات تصنيع وبرمجة الأدمغة البشرية , ولهذا فأن السلوك يتبدل وفقا للبرمجة وإعادة ترتيب وتعزيز التواصلية العصبية.

فالشخصية البشرية ذات ثوابت ومواصفات واضحة تتأثر بالتفاعلات القائمة في محيطها , ولا يصح أن نلصقها بمكانها وخصائصها الجغرافية والإثنية فنجردها من جوهرها , فنقول الشخصية العربية , الروسية , التركية , الهندية , الأمريكية , الأوروبية وغيرها. فالشخصية عموما وبلا إستثناء نتاج تفاعلها مع محيطها , بمعنى أن معالمها وثوابتها ذات مطواعة عالية وقدرات تكيفية لا محدودة.

وهذا ينطبق على المخلوقات الأخرى. فالظرف المكاني ينعكس في الذات الحية , وتتحقق تفاعلية حامية ما بين الإتجاهين للوصول إلى نتائج ذات قيمة بقائية.

وعندما نتحدث عن المجتمعات البشرية والحيوانية أيضا , فأن لكل منها قوانينه وتقاليده وأعرافه التي تحافظ على ديمومته وتفاعله الصالح للمجموع , وهذه الآليات يتم إستنباطها من التجارب والمواجهات والتحديات , التي تساهم في تشكيل السلوك الفردي والجمعي.

ولا توجد دراسات كافية لتقرير العديد من النظريات والتصورات والأفكار السلوكية , ففي المجتمعات المتقدمة هناك نظام سلوكي محكوم بقوانين راسخة , وفاعلة في مفردات الحياة اليومية وفقا لضوابط وأحكام قوية ثابتة , وكل شخص يأتي من أي مجتمع تجده يمضي في سبيله وفقا لآليات الضوابط والقوانين الفاعلة.

ولهذا فأن هذه المجتمعات تستوعب الأجناس بأعراقها وألوانها ومعتقداتها وما تحمله من تراث وخصائص , وفي مجتمعاتنا تم هدم الضوابط والتقاليد والأعراف , مما أدى إلى تواجد أجيال حائرة عشوائية السلوك مضطربة التفاعلات , لا تعرف إتجاه سيرها , وبهذا فأنها تمضي متخبطة في مسارات عديمة البوصلة والربان.

ونأتي لنزيد الطين بلة فنجتهد بالتوصيفات والتوصيمات , ونمضي بهذا المنهج التصوري التدميري الخارج عن الثوابت الواقعية والتفاعلات اليومية , التي تصلح لصناعة الحالة المواقبة لعصرها ومنطلق صيرورتها الأفضل , مما أدى إلى تسويغ الإنهزامية وتمرير الإنكسارية والتوجهات العبثية الخالية من الأبعاد المجدية.

الشخصية نمطية سلوكية
مُتعلمة وراثيا أو محيطيا ,
ولكل مخلوق آليات تفاعلية
متحفزة أكثر من غيرها ,
إنطلاقا من مكونات الذات
ومؤثرات المحيط

السلوك يتبدل وفقا
للبرمجة وإعادة ترتيب
وتعزيز التواصلية العصبية.

فالشخصية البشرية ذات
ثوابت ومواصفات واضحة
تتأثر بالتفاعلات القائمة في
محيطها , ولا يصح أن نلصقها
بمكانها وخصائصها الجغرافية
والإثنية فنجردها من جوهرها

فالشخصية عموما وبلا
إستثناء نتاج تفاعلها مع
محيطها , بمعنى أن معالمها
وثوابتها ذات مطواعة عالية
وقدرات تكيفية لا محدودة.

ويبدو أن القول بوجود
شخصية عربية ومن ثم قُطرية ,
لا أساس له من القوة
والبرهانية

ويبدو أن القول بوجود شخصية عربية ومن ثم قُطرية , لا أساس له من القوة والبرهانية , وعندما تثبت لنا الأبحاث والدراسات أن هناك شخصية إنكليزية أو أمريكية أو صينية أو هندية , عندها علينا أن نجزم بما نريد توصيفه أو إلصاقه بالعرب.

فهناك سلوكيات متنوعة للشخصية البشرية نابعة من مخزونها المتراكم في موروثاتها , وما يتأثر ويؤثر فيها وبها وهي في وعاء الواقع الذي تكون محكومة بالعيش والتواجد المصيري فيه.

فلو أخذنا إنسان من أي موطن أو جنس ووضعناه في نفس الظروف فأن سلوكه سيكون متشابها أو متقاربا جدا , وقد شاهدت ذات السلوك الذي كان يحصل في مجتمعنا في مجتمعات أخرى عندما تتشابه ظروفها وما يدور في وعاء وجودها.

ولو خلطنا بشرا من جميع الأجناس ووضعناهم في ربوع البيئة العربية , فأن سلوكهم لن يختلف عن أي عربي آخر يعيش ذات الحالة.

ودليلي على ذلك أن البشر من كافة أنحاء الدنيا يأتي إلى المجتمعات الغربية , وبكل الخلفيات والثقافات والعادات والتقاليد , وتجده ملزما بالقيام بذات السلوك العام الذي تمليه عليه البيئة التي عليه أن يعيش فيها ويتواصل.

فإذا قلنا أن هناك شخصيات بأسماء أوطانها وأجناسها , فأنها وبلا إستثناء تبدي ذات السلوك المعمول به في البيئة الجديدة.

وهذه أمثلة حية بسببها تستوعب المجتمعات المتقدمة كافة البشر , وتذيبهم في بودقة مجتمعاتها وتبني بهم حاضرها ومستقبلها , وتراني أقود فريق عمل من عدة مجتمعات وثقافات وإثنيات , لكنه يحقق إنسجاما وإنسيابية رائعة في العمل , وكأنه خلية نحل متوقدة النشاط.

إن الإمعان بالتوصيف العربي أو القطري , ربما من إنتاج أدب الإنكسار ومناهج الإندثار , وترسيخ الشعور بالهزيمة والسقوط في وحل الإلتاف والإنقراض الحضاري , وهناك العديد من الأقلام والعقول التي تنزلق إلى هذه الهاوية الخطيرة المريرة.

ومن الواضح أن معظم رواد الوعي العربي والنهضة العربية قد وقعوا في هذه الحفرة , فاجتهدوا بتسويق وتعزيز وتبرير ما هو قائم , وما تمكنوا من الأخذ بالمجتمع إلى ما هو أفضل , وحتى ما حصل في عام 1967 تم الإستثمار الهزائي الفجائي فيه , وتصوير العرب وكأنهم ماتوا وإنقرضوا ولن تقوم لهم قائمة , وتواصل دفعهم بهذا الإتجاه الإنحطاطي , إنطلاقا من فكر الهزيمة والإمعان بإعادة إنتاجها والإستثمار في تداعياتها , وهذا لم يحصل في ألمانيا أو اليابان أو إنكلترا أو لندن أو وارسو , عندما أصابها ما أصابها من الهزائم والدمارات المروعة الفتاكة في الحرب العالمية الثانية.

فديدن المفكرين هو الإجابة العقيمة على لماذا الحال على هذا الحال , فيأخذون بتصفيط وتضديد ما يحلو لهم , لكي يبرروه ويعززوه ويحسبون أنهم قدّموا شيئا جديدا نافعا.

وعلى سبيل المثال الإزدواجية التي تم لصقها بالمجتمع العراقي من قبل رواد علم الإجتماع , هي محاولة لتطبيق نظرية التنافر المتوافق (كوكنتف دسونس) التي جاء بها (ليون فستجر عام 1957) , وهو يدرس ظاهرة تنافر السلوك مع المعتقدات ويحاول تحليلها والتنبية إلى تأثيراتها وما ينجم عنها من تفاعلات , ويمكن القول بأنها تترجم المثل السائد "الماينوش العنب يقول حامض" , أي أن الذي لا يمكنه قطف عنقود العنب يقول عنه بأنه حامض , أي لم ينضج بعد , لتبرير فشله أو عجزه عن قطفه.

وخلصتها أنك تعتقد بشيء وتؤمن به وترغبه لكنك تأتي بسلوك يتقاطع معه , فتعمل على تسويق ما تقفله وتوائمه مع ما تعتقده بأساليب متنوعة , وهي ظاهرة سلوكية معروفة ترجمها هولاكو بإجرامية فائقة , بقوله أن ما يقوم به غضب الله المسلط على عباده الفاسدين.

عندما تثبتت لنا الأبحاث والدراسات أن هناك شخصية إنكليزية أو أمريكية أو صينية أو هندية , عندها علينا أن نجزم بما نريد توصيفه أو إلصاقه بالعرب.

هناك سلوكيات متنوعة للشخصية البشرية نابعة من مخزونها المتراكم في موروثاتها , وما يتأثر ويؤثر فيها وبها وهي في وعاء الواقع الذي تكون محكومة بالعيش والتواجد المصيري فيه.

إن الإمعان بالتوصيف العربي أو القطري , ربما من إنتاج أدب الإنكسار ومناهج الإندثار , وترسيخ الشعور بالهزيمة والسقوط في وحل الإلتاف والإنقراض الحضاري

أن معظم رواد الوعي العربي والنهضة العربية قد وقعوا في هذه الحفرة , فاجتهدوا بتسويق وتعزيز وتبرير ما هو قائم , وما تمكنوا من الأخذ بالمجتمع إلى ما هو أفضل

تجد هذا التناقض السلوكي لدى المذبحين بالمثل والمذاهب والأديان ,

فقد تعتقد وتؤمن بأن إغتصاب حقوق الآخرين سلوك سيئ وأثم , لكنك تستولي على ممتلكات شخص آخر وتشرده أو تقتله , ولكي تبرر جريمتك تقول لنفسك بأنه لا يستأهل هذا المال وأنه قد إغتصبه , أو أنه إنسان سيئ وهذا غضب الله عليه.

وتجد هذا التناقض السلوكي لدى المدّعين بالمثل والمذاهب والأديان , فهم يقولون ما لا يفعلون , ويطلبون من الناس إتباع أقوالهم لا أفعالهم.

أما ناقلوا هذه النظرية والذين كانوا يدرسون في أمريكا عندما ظهرت أخذوها ليطبّقونها على الواقع العراقي , ويلصقون به تهمة الإزدواجية , بينما السلوك البشري يحتمل أكثر من الإزدواجية بعشرات المرات , إذ تجد الشخص يتقلب في سلوكه وفقا لإرادته المصلحية البقائية بعيدا عن أي اعتبار , ولا يمكنك أن تجد شخصا في المجتمعات الأخرى وفيه إزدواجية وحسب , لأنه يتصرف وفقا للمصلحة , وهذا ينطبق على التفاعل مع الآخرين في عالم السياسة والإقتصاد والمال والحرب, بل أن هناك ما يمكن تسميته بالسلوك الزنبيقي , الذي أوجدته العولمة وتفاعلات البشر المتسارعة على شبكات التواصل الإجتماعي.

وعليه فأن هذه المفاهيم لا أساس لها من الواقع ولا رصيد يعززها , ويبدو القول بوجود شخصية عربية , فرنسية , أمريكية وغيرها , نوع من الإجتهد الذي علينا أن نبتعد عنه ونرفضه بقوة وحزم. فيا ترى ما هو المقصود بالشخصية العربية؟! أي ما هو التعريف العلمي الذي تبنى عليه الإفتراضات والتصورات , وهل توجد شخصية مقرونة بالعنصر والجغرافية والتأريخ؟

كيف نستسهل التوصيف والسقوط في حفر المسميات التي تعني الإستهداف؟ فلكي تقضي على أي موجود عليك أن تسميه وتلصق به التوصيفات التي تتقاطع مع حق الحياة والبقاء , وتسويغ الشروع بسلوك الفناء الذاتي والموضوعي.

فالعرب اليوم تحت مطرقة التسميات المذمومة . التي تتيح للآخرين إخراجهم من آدميتهم وإستهدافهم , والنيل من وجودهم أو السعي لمحقتهم وإتلاف ما يشير إليهم.

والخلاصة أن لا توجد شخصية بهذه الموصافات , ومن المتعارف عليه أن الكيان البشري واحد , وما فيه ناجم عن تفاعلات متبادلة ما بينه وواقعه الذي يترعرع فيه , وكلما تواصل وجوده عبر الأجيال إختزن قدرات تزداد إنتماءً للمحيط الذي تولدت فيه مرتكزاته وموروثاته.

ويمكن القول أن الشخصية متشابهة المفردات وذات تعبيرات سلوكية متنوعة , وعند التفاعل مع مختلف الأجناس البشرية تكتشف أن الكيان واحد والإستجابات متشابهة , ولا يمكن فصلها عن أرشيف الذات البشرية وظروفها المحيطية , وما مرت خلاله من تحديات ومواجهات وما تعلمته من آليات أعانتها على البقاء والتطور والنماء.

وما علينا إلا أن ننتبه للتفاعلات النكيدة , أو النكداوية التي تسود العالم العربي وتساهم في إنتاج الأدب النكيد!!

*** **

فهم يقولون ما لا يفعلون , ويطلبون من الناس إتباع أقوالهم لا أفعالهم.

هناك ما يمكن تسميته بالسلوك الزنبيقي , الذي أوجدته العولمة وتفاعلات البشر المتسارعة على شبكات التواصل الإجتماعي.

فلكي تقضي على أي موجود عليك أن تسميه وتلصق به التوصيفات التي تتقاطع مع حق الحياة والبقاء , وتسويغ الشروع بسلوك الفناء الذاتي والموضوعي.

فالعرب اليوم تحت مطرقة التسميات المذمومة . التي تتيح للآخرين إخراجهم من آدميتهم وإستهدافهم , والنيل من وجودهم أو السعي لمحقتهم وإتلاف ما يشير إليهم.

أن الكيان البشري واحد , وما فيه ناجم عن تفاعلات متبادلة ما بينه وواقعه الذي يترعرع فيه

